مجلة الباحث – المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة – الجزائر

المجلد: (16)	العدد:(01)	السنة: 2024	صفحات المقال: 109 – 133	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الفعل الكلامي في أطلال الشعر القديم
– مقاربة تداوليّة –

The speech act in "ATLAL "of the ancient poetry, Pragmatic approach

عمارة الجدّاري

جامعة المنستير، تونس

amarajeddari@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/07/18 تاريخ القبول: 2024/03/14 تاريخ النشر: 2024/04/17

الملخص:

يمثّل القسم الطلليّ عنصرا بارزا في القصيدة العربية القديمة ابتدعه الشعراء وأبدعوا فيه واتّبعوا سنّة بعضهم بعضا في بنائهم هذا القسم مَطْلَعًا للقصيدة واستهلالا. ويقف فيه الشاعر على مخاطبات بارزة للرفيقيْن أو الصحب والممدوح بصفة مباشرة، وللطلل والحبيبة بصفة غير مباشرة. ويستعمل في الحالين أفعالا كلامية تروم إنجاز مقولات الوقوف والبكاء وإثارة الشجن وحقّ الرجاء على الممدوح... وكانت هذه الأفعال تتوسل خطابات بلاغية كالأمر والاستفهام والنهي. وهي أفعال لغوية قائمة على التلفظ والإنجاز والتأثير طالما تشكّلَ مخاطَبٌ يستجيب فيتفاعل مع الذات المتكلمة إمّا تأثرًا أوْ ردّ فعل... ولمّا كان المقطع الطلليّ قائما على أساليب الأمر والاستفهام والنداء، وأعمال الاستبكاء والاستيقاف وحقّ الرجاء، استأنَسْنَا التوَسُّلَ بنظرية أفعال الكلام في قراءة هذه المخاطبات التي تقوم عليها المقاطع الطلليّة.

الكلمات المفتاحية: **الأطلال، أفعال الكلام، الأعمال اللغويّة.**

Abstract:

The TALAL represents a prominent element in the ancient Arabic poem. It was invented by poets and excelled in it, and they followed each other's traditions in their construction. This section is the beginning of the poem and its beginning. In it, the poet stands on prominent addresses to the two companions or companions and the praised one directly, and to the girl and the beloved indirectly. In both cases, he uses verbal verbs intended to accomplish the sayings of standing, crying, provoking grief, and the right of hope for the praiseworthy...

These acts were pleading rhetorical speeches such as command and interrogation and prohibition .They are linguistic verbs based on utterance, achievement, and influence, as long as they form an interlocutor who responds and interacts with the speaking self, either by affect or reaction ... And since the TALAL is based on the methods of command, interrogation, and call, and acts of weeping, pause, and the right to hope, we have become accustomed to invoking the theory of speech verbs in reading these discourses on which the predicate syllables are based

Keywords:

ATALAL, Speech acts, Linguistic actions

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

مقدّمة:

يمثّلُ الطلل قسمًا من القصيدة القديمة بارزا ناتئا مشحونا بالعواطف ومُخَالَجَةِ الوجدان. فكان علامة على استهلال القصيد، ولقيَ حُظوةً مُهِمّةً فِي الدَرْسَيْن النقديّيْن القديم والحديث. وكانت المداخلُ النقديّةُ متنوّعةً مستفيدةً من مناهجَ متنوّعةٍ.

وممّا زاد الطللَ شجنًا وعاطفيّة قيامُهُ على أساليبَ إنشائيةٍ خالصة نداءً واستفهاما وأمرا ونهيا. فكانت أفعالا تلفّظيّة منطوقة تبتغي فعلا وإنجازا لتُحَقِّقَ تأثيرا وانفعالا. واستحضرت العملية التواصلية أطرافا تمثلت في الشاعر باثا ومتكلما، والرفيقين والممدوح متقبّلين مباشرين والحبيبة والطلل متقبلين غير مباشرين. فكانت هذه الخصائص المميزة للطلل مستجيبة لنظرية الأفعال الكلامية طَيِّعَةً لمختلف إجراءاتها. لا سيما أنَّ هذه النظرية تسمح بتمييز خصائص الخطاب الأدبي وتحقق إنجازيّته التي تُخْرِجُهُ مِنْ سمة الأساليب اللغويّة الزائفة والتافهة[1]. ففضل نظرية الأفعال الكلامية أنّنَا نستطيع من خلالها استنطاق النص الأدبي عامّة وتبيّن القدرة الإنجازية للفعل في المطلع الطلليّ وتحقيق الأقوال أفعالا والتلفظ إنجازا بصفة خاصّة. وسنسعى إلى التعريف بأفعال الكلام بصفتها نظريّة لغويّة لها مرتكزاتها المتحوّلة، وسنكشف مدى طواعيّتها لقراءة النصّ الأدبيّ. لنتبيّن تشكّلها في المطلع الطلليّ من خلال الأفعال التي تنتظمه قولا فتتحوّل بطبيعتها إنجازا.

1- أفعال الكلام نظريّة لغويّة:

تُعَدُّ نظريّة أفعال الكلام نظريّة في اللغة تقوم على مبدأ أنّ المتكلّم حين يتلفّظ بالكلام فإنّه ينجز حدثا أو فعلا كلاميّا[2]. فتقوم على اعتبار أنّ أيّ قول إنّما هو أساسا يُنجزُ فعلا... فاللغة مظهر فعليّ حدثيّ يسند قوّة إنجازيّة للملفوظات[3]. فالأفعال الكلاميّة ما هي إلاّ ملفوظات تصدر عن المتكلّم وتنحو أشكالا مختلفة على نحو الطلب والأمر والاستفهام[4] لغاية التأثير في المتلقّي فتصدر منه أفعال تتشكّل ردّ فعل لفعل المتكلّم الكلامي. فكان الإقرار بأنّ **"كل ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إعجازيّ تأثيريّ، وعلاوة على ذلك يعدُّ نشاطا ماديّا نحويّا يتوسّل بأفعال قوليّة إلى تحقيق أغراض إنجازيّة كالطلب والأمر والوعد والوعيد... وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المتلقّي كالرفض والقبول ومن ثمّ فهو(الفعل**

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

الكلامي) فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعيّا أو مؤسّساتيّا ومن ثم إنجاز شيء ما..."[5] فالفعل الكلامي يتمثّل في الأقوال غير الوصفيّة التي لا يمكن أن تسند إليها أيّ قيمة صدقيّة والتي لها طبيعة إنجازيّة يمتزج فيها القول [Le dire] بالفعل[Le faire] وتميّزت أفعال الكلام بعدم خضوعها لمعيار الصدق فلا يمكن أن يُحكم عليها بالصدق والكذب إنّما هي العلاقة بين المُتَلَفَّظ (القول) وما ينجرّ عنه من عمل أو حدث[6]. وتعود هذه النظريّة إلى جون لانشو أوستين[John Langshaw Austin][7] في محاضراته التي جمعت في كتابه المترجم الى اللغة العربية تحت عنوان كيف ننجز الأفعال بالكلمات؟[8]. وطوّرها لاحقا تلميذُهُ جون سيرل[John Rogers Searle][9]. ثمّ تمحضّت عن ذلك آراء وأفكار متنوّعة متعلّقة بالفعل الكلامي. فلئن كان أوستين يميّز فعل الكلام ويبيّن تراتبيّته من التلفظ إلى تأثر المتلقّي فإنّ سيرل قد أعاد صياغة المبحث مستفيدا من الأساس النظري لأوستين وأقرّ بتصنيفه الفعل الكلاميّ إلى إنجازيّ مباشر وإنجازيّ غير مباشر[10]. وسنحاول في هذا الرسم بيان الفرق بين تصوُّرَيْ أوستين وسيرل للفعل الكلامي.

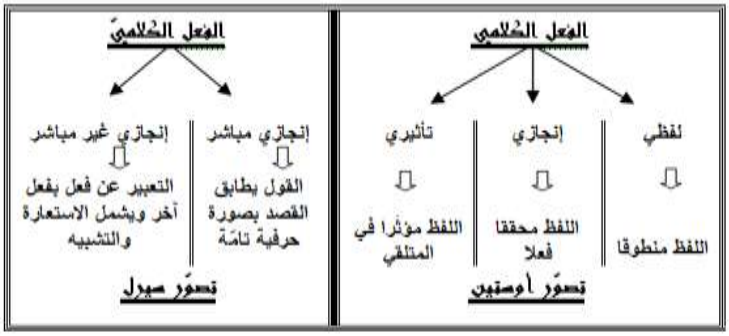

تصوّر أوستين و سيرل للفعل الكلاميّ

نخلص من هذا الرسم إلى أنّ أوستين قد قسّم الفعل الكلاميّ إلى لفظيّ وإنجازيّ وتأثيريّ على حين كان سيرل يميّز في إطار النظريّة ذاتها مطوّرا ما ذهب إليه أستاذه مستثمرا جهازه النظريّ بين الفعل الإنجازيّ المباشر والفعل الإنجازيّ غير المباشر.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

1-1- أفعال الكلام عند أوستين:

يعود البحث في أفعال الكلام إلى الإقرار بأنّ وظيفة اللغة لا يمكن أن تقتصر على وصف وقائع العالم وصفا إمّا أن يكون صادقا أو كاذبا. بل إنّ كثيرا من التعابير اللغويّة إذا نطقتها لا تنشئ قولا فحسب بل تؤدّي فعلا. وتطوّر نظر أوستين ليتعامل مع شتى أنواع الجمل المنطوقة بمعيار الأدائيّة التي تحقّقها هذه المنطوقات بالفعل. وقد وضع شروطا لتحقّق الملاءمة واشترط فيها أن تكون مجتمعة لتحقّق الإنجازيّة وإلاّ فإنّ الأداء يختلّ والإنجازيّة لا تتحقّق[11]. وبيّن أوستين في اشتغاله على الفعل الكلاميّ أنّه مركّب من ثلاثة جوانب تُؤدّى في نفس الوقت.

1-1-1- الفعل اللفظيّ:

يصدر المتكلّم العبارة فيحقّق تصرّفا عمليّا. فنُطْقُ عِبَارَةٍ ما هو إلاّ عمل أو فعل. لأنّ مجرّد التفكير في شيء ما دون قوله ونطقه ودون التعبير عنه لن يحقّق الفعل اللفظيّ. ولا يتحقّق الفعل اللفظيّ إلاّ إذا تجاوزنا التفكير إلى القول والتعبير. ويرى أوستين أنّ الفعل اللفظي مركّب من ثلاثة عناصر تركيبيّة نجملها في الرسم التالي:

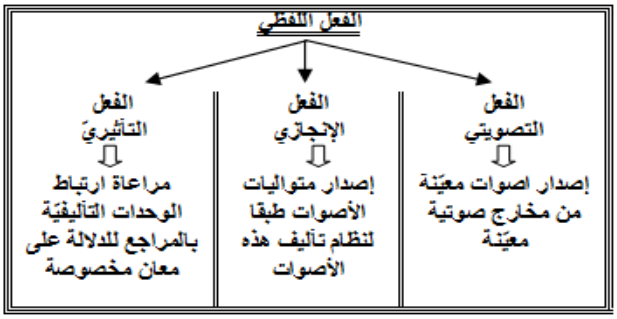

عناصر الفعل اللفظي عند أوستين

فالفعل اللفظيّ يتألّف من نطق أصوات معيّنة تؤلّف ألفاظا أو كلمات معينة وتتركّب من هذه الألفاظ جمل نحويّة محدّدة وتستعمل هذه التراكيب للإشارة على معنى محدّد[12] فينشأ فعل صوتيّ وفعل تركيبيّ نحويّ وفعل دلاليّ في آن واحد.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

1-1-2- الفعل الإنجازيّ:

يمثل الفعل الإنجازيّ الأساس الذي من خلاله تتحقّق نظريّة أفعال الكلام ويُسمّيه أوستين بقوة الفعل ولا يتحقّق هذا المعنى إلا بتوفّر شروط تحتكم إلى السياق العرفيّ المؤسّساتي لغة ومحيطا وأشخاصا. فتحقيق الفعل اللفظيّ هو في ذات الوقت إنجاز لفعل ما تؤدّيه صيغة لفظية يحتكم إلى السياقات الاستعماليّة للغة استفهاما أو إخبارا أو وَعْدًا[13]... وما دام الفعل الذي يحقِّقُهُ مستعمل اللغة مستجيبا لهذه الشروط فإنّه يُعْتَبَرُ فعلا إنجازيا لأنّ تحقيق فعل لفظيٍّ في سياقٍ استعماليّ معيّن يكون منجزا للفعل إمّا إخبارا أو تساؤلا أو نقدا... والفعل الإنجازيّ يتحقق بتعابير لغويّةٍ تحتوي، فضلا عمَّا يُوَفِّرُهُ الفعل اللفظيُّ على قوى إنجازيّة كَأَنْ يَسْتَفْهِمَ المُتَكَلِّمُ أو أنْ يُخبرَ فيحقّقَ قوّة إنجازيّة تمثِّلُ القصْدَ التداوليَّ من تحقيق الفعل اللغوي. لذلك اُعْتُبِرَ الفعلُ الإنْجازيّ الفعلَ الذي تبرز من خلاله معالمُ الاستعمالِ.

ويشترط أوستين للفعل الإنجازي أنْ يشمل آداء الفعل اللفظيّ وامتلاك الجُمَلِ المنطوقة لغرض بلاغيّ. وتكتمل هذه الشروط باستيفاء الأعراف المحدّدة لممارسة الفعل في شتى الحالات والممارسات الاستعماليّة للّغة. فالفعل الإنجازيّ ينطلق من تلفّظ أو فعل لفظيّ وينتهي إلى أنْ يَتْرُكَ أثرًا أو تأثيرًا في المتلقّي.

1-1-3- الفعل التأثيريّ:

يتمثل الفعل التأثيري في الأثر الذي يُحْدِثُهُ المتكلّم بالفعل الإنجازيّ في المتلقي. فالمتكلم ينتج كلمات في بِنًى نحويّة منتظمة محمّلة بمقاصِدَ مُعيّنة في سياقٍ مُحَدّدٍ تَعملُ على تبليغ رسالة فيتفاعل معها المتلقي بما أحدثته من تأثيرات مُعيّنة تَشْمَلُ المشاعرَ والأفكار والسلوك. فينشأُ أثرٌ للفعلِ الإنجازيّ. هذا الأثرُ يُثْبِتُ أنّ الفعل الإنجازيّ قدْ تَحقَّقَ، ومِنْ ثمّة قد استقامت مختلفُ عناصر نظريّة أفعال الكلام[14]. فالفعل التأثيريّ يهتمّ بما يمكن أن يحدثه الفعل الإنجازي في متلقّيهِ من تأثير على قناعاته وأفكاره ومشاعره وعواطفه، فقد يخيفه وقد يُحَفّزهُ وقد يحزنه وقد يشعره بالسعادة أو الامتنان أو بالحماس حسب طبيعة الفعل الإنجازي وقوته أيضًا، ويظهر أثره في سلوك المتلقي... ولمَّا كانت هذه النظريَّةُ غيْرَ مُكتَمَلَةٍ مَع **أوستين** فتح الباب للدارسين لتطوير هذه النظريّة وهو ما آل إلى جهود تلميذه **جون سيرل**

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

الذي استلهم هذا الجهاز النظري وانطلق في قراءةٍ جعلته يطوّر النظريّة ويُحدّدُ تصنيفا جديدا للأفعال الإنجازيّة.

1-2- أفعال الكلام عند سيرل:

طوَّرَ **سيرل**[15] نظريّة أفعال الكلام، وركّزَ على العنصر الناطق فيها المتمثل في الفعل الإنجازيّ، فَصَنّفَهُ إلى فعل إنجازيّ مباشر وفعل إنجازيّ غير مباشر. وسنحاول إجمال ذلك في الرسم التالي:

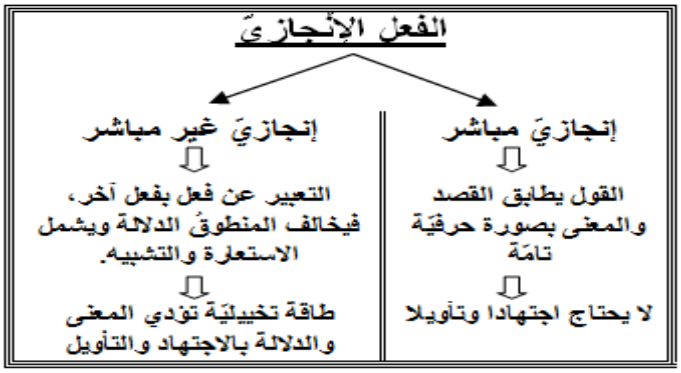

تصنيف أوستين للفعل الإنجازيّ

انطلق **أوستين** في تحديد الأفعال الإنجازيّة من تصنيف جديد، فعل إنجازيّ مباشر وفعل إنجازيّ غير مباشر. فكان مرتبطا بما ينجزه المتكلّم وما يتحقّق من فَهْمٍ عند المتلقّي.

1-2-1- الفعل الإنجازيّ المباشر:

يقصد **سيرل** بالفعل الإنجازيّ المباشر مُطَابَقَةَ الفعل في قوّته الإنجازيّة مراد المتكلّم فيطابق القول مقصد المتكلّم مطابقة حرفيّة تامّة[16]. فمعاني الكلمات المكوّنة للجملة والقواعد التركيبيّة التي تنتظمها يدركها المتلقّي ويتسنّى له فَهْم فَحْوَاهَا آليّا دون الحاجة إلى بيان أيّ معنى إضافيّ ولا يحتمل تأويلا. فالفعل الإنجازيّ المباشر يتركّز على تلفّظ المرسل خطابا مباشرا يعنيه حرفيّا فيُنْتِجُ أثرًا إنجازيًّا عند المتلقّي الذي يدرك القصد الذي رمى إليه المرسل بل والأثر الذي يريد أن يحقّقه.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

1-2-2- الفعل الإنجازي غير المباشر:

يخالف المنطوق في الفعل الإنجازي غير المباشر الدلالة. لكنّ الاستعمال يَشْحَنُهُ بِطَاقَةٍ أخرى تخييليّة أو شعريّة فيؤدّي المعنى والدلالة بالتأويل والاجتهاد وتنضوي تحته التشابيه والاستعارات والمجازات... فالفعل الإنجازي غير المباشر استراتيجيّة لغويّة تلميحيّة يعبّر بها المتكلّم عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفيّ. فيشمل الأفعال ذات المعاني الضمنيّة التي لا تدلّ عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكنّ للسياق دخلا في تحديدها والتوجّه إليها. ولم يكتف **سيرل** بذلك بل طوّر من الأفعال الإنجازيّة ووقف على تحديدات جديدة تجري وفق صِنَافَةٍ تُحدّدُ مختلف أنماط الفعل الإنجازي الذي تعلّق بدراسة المعنى الذي يريد المتكلم إيصاله للمخاطب ويدل عليه دليل وهو القوة الإنجازية، وبدراسته يمكن تصنيف الكلام لأحد التصنيفات الخمسة التالية[17]: الإخباريّات[18] والتوجيهيّات[19] والالتزاميّات[20] والتعبيريّات[21] والإعلانيّات[22]. وفضل هذه النظريّة في اللغة الاستعماليّة واضح ولمّا كان النصّ الأدبيّ لغة ترتضي الإبداع والتبليغ كانت نظريّة أفعال الكلام سبيلا إلى الوقوف على شعريّة النصّ وأبعاده الجماليّة والإبداعيّة.

2- أفعال الكلام والنص الأدبي:

تعدّ نظريّة أفعال الكلام من المستويات التداوليّة التي استفاد منها النصّ الأدبيّ متوسّلا السياق التداولي مقولات الفعل الإنجازيّ سواء في علم اللغة النصّي أو النقد الأدبيّ الحديث. فكثيرا ما استثمرت مقولات الفعل الإنجازيّ في علم اللغة النصّيّ. فالنصّ الأدبيّ يُنَزّلُ في مقولات النقد الحديث "**بوصفه فعلا لغويّا يدلّ عليْه قصد المتكلّم، وأنّ إدراك المعاني الحقيقيّة للمنطوقات إنّما يتحقّق في سياقات الاتّصال الفعليّة**"[23]

والبحوث النصيّة تستفيد كثيرا من نظريّة أفعال الكلام لاسيّما أنّ الاتّجاه النصّيّ التداوليّ الذي ينظر إلى النصّ برمّته على أنّه وسيلة اتّصاليّة. ومن ثمّة يمكن النظر إلى النصّ من وجهتين رئيستين تتمثّل الأولى في كشف المبادئ التي تربط على أساسها الأحداث الجزئيّة لتكوّن أبنية الأحداث المركّبة. وتتمثّل الثانية في تصريف السياق في أبنية الحدث في النصوص مع أبنيتها اللغويّة المناسبة[24]. ويلحّ فان دايك على النظر إلى النصّ باعتباره فعلا للسان أو بوصفه سلسلة من أفعال اللسان. ويتكوّن السياق التداولي لديْه من العوامل النفسيّة

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

والاجتماعيّة التي تُحَدّدُ نسقيّا لكي تلائم أفعال الكلام. ويتبيّن من مقارنة البنية الدلاليّة الكبرى في الفعل الكلاميّ الإنجازيّ الشامل ويؤكّده فان دايك حين يذهب إلى أنّ "**معنى الخطاب يرتبط ارتباطا وثيقا بفعل الكلام كما أنّ الاتّفاقيّات المجمع عليها تداوليّا ومجتمعيّا قد تحدّد في ذات الوقت الاختيار السيميائي من بين المعلومات المفروضة فعلى هذا فإنّ صياغة البنيات السيميائيّة تكون وظيفة لبنية تداوليّة كبرى وتجدّد القضيّة الكبرى المحتوى المعيّن لفعل كلاميّ**"[25]. ويرى أنّه من الممكن تحليل النصّ على أنّه متوالية من أفعال الكلام مثلما يُحلّلُ على أنّه متوالية من الجمل، وأنّه يمكن إدْخال بِنًى كبرى تداوليّة لأفعال الكلام. كما أُدخلت بنى كبرى لمضمون النصّ بل إنّه يمكن النظر إلى النصّ باعتباره فعلا كبيرا من أفعال اللسان. من ثمّة يمكن للإنجازيّة أنْ تساعد على تمييز خصائص الخطاب الأدبيّ. فتركّز الانتباه على استعمال اللغة بوصفها نشاطا وصناعة للعالم شبيهة باللغة الأدبيّة وتساعد على التفكير في الأدب بوصفه فعلا أو حدثا. فتكشف عمّا يميّز خصوصيّة الملفوظات الأدبيّة باعتبارها أفعال كلام. والتصوّر الذي ينزّل الأدب ضمن المنطوقات الإنجازيّة يرفعه عن الحكم بِكَوْنِهِ من الأقوال الزائفة والتافهة "**ولكن يأخذ موقعه بين أفعال اللغة التي تحوّل العالم خالقة للأشياء التي تسميها**"[26] فالملفوظات الشعريّة قادرة أن تكشف عن بعد إنجازيّ من خلال ما ينطقه الشاعر وما يتلفّظ به يقصد به متقبّلا يتأثّر بدلالات قوله فيتفاعل معه. وهو ما يتجلّى في المطالع الطلليّة من استحضار لأفعال لغويّة كلاميّة متنوّعة ترُومُ التأثيرَ في المتلقّي فيستجيب متفاعلا ومُثَارًا.

3- تشكل الأفعال الكلامية في المطلع الطللي:

تتواتر الأفعال في المطالع الطلليّة وتتنوّع آخذة أشكالا تعبيريّة مختلفة. وسنقف على أبرزها لنبيّن من خلال ذلك طواعيّة النصّ الشعريّ لدراسة الأفعال الكلاميّة التي أنيطت عند الباحثين بعهدة اللغة المستعملة. ونكشف عن أنّ النصّ الشعريّ عامّة والمطالع الطلليّة بصفة خاصّة مازالت لم تكشف عن كثير من مخبوئها الدلاليّ الذي قد يكشفه تنوّع المناهج والمداخل اللغويّة وتكسير التحنيط البنيويّ الذي جمّد قراءة النصّ الشعريّ العربيّ القديم وجعل قراءته لا تتحرّك إلا في خانات دلاليّة محدّدة. فسنحاول الوقوف على المَقْصَدِ بالمطلع الطلليّ، وقراءة الأفعال التي استقام عليها، والمتلقّي الذي يروم الشاعر مخاطبته.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

3-1- المطلع الطللي:

يُعدُّ المطلع الطلليّ قِسْمًا من القصيدة القديمة، **"والطلل ما شخص من آثار الديار، والرسم ما كان لاصقًا بالأرض، وقيل طلل كل شيء شخصه، وجمع كل ذلك: أطلال وطلول"**[27]. فالطلل مكان شاخص ذو رسوم بالية ويحضر بصفته موضوعا شعريّا. ويتجلّى غالبا في مطلع القصيدة لأنّ "**مقصّد القصيد إنّما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وخاطب الربع...**"[28]. فالشاعر يقف فيه على آثار الحبيبة يبكيها ويشكو همومه ويخاطب الربع. فـ"**أكثر ما يتراءى الشاعر في هذه المقدمات يتراءى واقفا بها مستوقفا أصحابه باكيا ذكرياته التي عاشها فيها يوم أنْ كانت عامِرَةً بأهلها...**"[29]. ويَتّبِعُ في ذلك سُنّةً شعريّة ويتأثّر بواقع اجتماعيّ قائمٍ على الرحلة والترحال فيشحنه بأسماء الأعلام نساءً ومواقع[30]. وكثيرا ما تتشكّل الأطلال في "**البقايا التي تظهر شاخصة ماثلة فوق الأرض؛ كالأوتاد، والأثافيِّ، وبقايا الخيام، والأطلال واحدها طلل، وهو ما شخص وبرز فوق الأرض من آثار الديار**"[31]. فتكون بهذا التشكّل أكثر إثارة للشجن وأبعد تأثيرا في المتلقّي الذي يتنوّع في المطالع الطلليّة.

3-2- المتلقي في المطلع الطلليّ:

اتّخذت الأفعال في المطلع الطلليّ أشكالا عدّة قوامها النداء والأمر والاستفهام[32] لتعكس الطلب والوعد وإثارة الشجن واستثارة الرفيقين إيقافا وإبكاءً والتأثير في الممدوح وإيجاب حقّ الرجاء عليه. وهذه الأفعال تستدعي أصنافا من المتلقّي. فالقسم الطلليّ رغم ما تشوبه من عواطف ووجدانيّات تحركها حالات الحزن لفراق الحبيبة وما تحدثه من الذكريات واستحضار الماضي ومعاندة الزمن بقاءً وتحدّيا... والشعر خطاب القلوب تنفعل به النفوس وتتأثّر فضلا عن دوره ووظيفته عند العرب وفضلا عمّا ينتهجه من إيقاعات وموسيقى تشدّ السامع فينفعل بها[33]. والفعل الكلامي الذي يتشكّل في مستوياته الثلاثة تلفّظا وإنجازا وتأثيرا يقصد متلقّيًا متنوّعا، منه ما هو مباشر حاضر يتفاعل مع الشاعر متكلّما ومتلفّظا ومعبّرا عمّا يختلجه ويتفنّن في التعبير عنه وإبراز مقدرته الإبداعيّة مثل الممدوح الذي يخصّه الشاعر بالخطاب ليجزل عليه العطاء، والرفيق الذي يتفاعل معه فيطلب منه الوقوف والبكاء فيردّ عليه بالتصبّر والتجمّل. ويحضر في المطلع الطلليّ متلق اعتبرناه غير مباشر لأنّه غائب

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

يستحضره الشاعر، لكنّه غير ماثل إنّما هو متنزّل في ذهن الشاعر فيتوهّمه حاضرا ماثلا لكنّ مثوله لغويّ فحسب. ويجري هذا الخطاب موجّها إلى الحبيبة أوالطلل. وهي مخاطبات غير متفاعلة مع المتكلّم لأنّها غائبة، غير مباشرة، إنّما يتوهّم الشاعر جوابها وتفاعلها. فالمتلقّي يجري على شاكلتين إمّا مباشر مثل الرفيق الذي يناديه بضمير المخاطب المثنّى **[أنتما]** أو الممدوح الذي يخصّه الشاعر بِنَصِّهِ ذي غرض المدح ليُوجِبَ عليه حقّ الرجاء فيغدق عليه العطاء ووسمناه بالمتلقّي المباشر لأنّه حاضر متفاعل مع الشاعر مستجيب إمّا رفضا أو تأكيدا. وإمّا غير مباشر مثل الحبيبة والطلل اللذيْن يخاطبهما الشاعر لكنّهما لا يتفاعلان معه، فلا جواب منهما إنّما يتوهّم الشاعر وجودهما ومثولهما أمامه. والأفعال الإنجازيّة في المطلع الطلليّ ستحتكم إلى هذيْن النوعيْن من المتلقّي: مباشر وغير مباشر.

4- الأفعال الإنجازيّة في المطلع الطللي:

تشكّلت الأفعال الإنجازيّة في المطلع الطلليّ وفق خصوصيّة المتلقّي الذي بدا إمّا حاضرا متفاعلا مباشرا أو غير مباشر غائبا ماثلا لغويّا فقط يتوهّم الشاعر حضوره.

4-1- الأفعال الإنجازيّة المباشرة:

تمثّلت الأفعال الإنجازية المباشرة في الأفعال التي مرّت بأطوار الفعل الكلاميّ الثلاثة من التلفّظ إلى الإنجاز إلى التأثير في المتلقّي فيغدو منفعلا مستجيبا متفاعلا مع خطاب الشاعر. ووقفنا على ثلاثة أفعال رئيسة مباشرة استيقاف الصحب، وإبكائهما، وإيجاب حق الرجاء على الممدوح.

4-1-1- استيقاف الصحب:

الاستيقاف مصدر من استوقف، يستوقف وحضر في المطلع الطللي من خلال دعوة الشاعر صَحْبَه إلى الوقوف على طلل الحبيبة، طلل تقادم حتى كادت تطمسه الحوادث والخطوب. ويستحيل وجود مقطع طللي دون أن يدعو فيه الشاعر رفقته أو صحبه الى الوقوف.

فالشاعر لا يقف لوحده وبنفسه فحسب بل يستدعي صاحِبًا لأنّ النفسَ تحتاج في حزنها وشجنها وشدّة شوقها صاحبا تبثّه شكواها ويبادلها الإحساس والعاطفة والوجدان. ويُمثّل الرفيق عنصرا رئيسا في المطلع الطللي يستحضره الشاعر لبثّ الشكوى وإثارة الأشواق

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

ومثّل ورُودُهُ اختلافا بين الشرّاح والدارسين بين اعتبار المخاطب مفردا **[أنت]** على التأويل أو مثنّى على الظاهر اللغوي **[أنتما]**. ولعلّ استهلال امرئ القيس لمعلّقته أكبر دليل على ذلك في قوله[من الطويل]:

"**قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ** ۞ **بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَخُولِ فَحَوْمَلِ**"[34]

فالخطاب بين الشاعر والمخاطب المثنّى **[أنتما=قِفَا]** وخطاب التثنية جعل بعض الشراح يذهبون إلى أنّ الشاعر يخاطب رفيقيْه. لكنّ البعض يرى أنّ الشاعر يخاطب رفيقا واحدا وإنّما التثنية على عادة العرب الذين كانوا يخاطبون الواحد خطاب الاثنين وقد جرى ذلك في القرآن حين خاطب الله خازن جهنّم في سورة ق "**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**"[35].

ومرّت الدعوة إلى الوقوف بالتلفّظ فالفعل فالتأثير في المتلقّي. فحضرت الجوانب الثلاثة لأفعال الكلام. وهذه الجوانب تتحقّق معا لأداء دعوة الشاعر رفيقيْه للوقوف على الأطلال. فكان طلب القيام بالفعل أمرا وأكّده المفعول المطلق [وقوفا] في قوله[من الطويل]:

"**وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ** ۞ **يَقُولُونَ لَا تَهْلَكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ**"[36]

فكانت رِدَّةُ الفِعْلِ من المتلقّي دعوة مناقضة تمثلت في الإلحاح على الصبر وعدم الهلاك حُزْنًا. فتحقّق ما يعتبره أوستين "**الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتكلّم**"[37].

وكان امرئ القيس سبّاقا إلى هذه الصيغة في الدعوة "**فاحتج لامرئ القيس من يقدمه، وليس أنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء؛ منها: استيقاف صحبه، والبكاء في الديار، ورقة النسيب وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض والخيل بالعقبان والعصي وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى**"[38]. وتعدّت دعوة الوقوف النصَّ الواحدَ إلى أشعار متعدّدة فيقول طرفة في مطلع معلّقته [من الطويل]:

"**وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ** ۞ **يَقُولُونَ لَا تَهْلَكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ**"[39]

ولم يكتف الشعراء باستعمال مادّة [و،ق،ف] للتعبير عن دعوتهم للوقوف على الأطلال بل نَوّعُوا في الأفعال الدالة على ذلك مثل "**عُوجَا**" و"**عُوجُوا**" فيقول امرئ القيس [من البسيط]:

"**عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا** ۞ **نَبْكِي الدِيَارَ، كَمَا بَكَى ابْنُ حَذَامِ**"[40]

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

أو قول ذي الرمّة[41] [من الطويل]:

"**خَلِيلَيّ عُوجَا مِنْ صُدُورِ الرَوَاحِلِ * بِجُمْهُورِ حُزْوَى فَابْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ**"[42]

وربّما ردّ النقّاد القدامى الفرق بين **[قفا وقفوا]** وبين **[عوجا وعوجوا]** إلى وجود الأطلال في الطريق أو بعيدة عنه. فـ"**العرب لا تقصد الديار للوقوف عليها وإنّما تجتاز بها فإنْ كانت على سنن الطريق قال الذي له أرب في الوقوف لصاحبه أو أصحابه: قفْ وقفَا وقفُوا، وإنْ لم تكن على سنن الطريق قال عوجا وعرّجا، وعوجوا وعرّجوا**"[43].

فالدعوة إلى الوقوف فيها تلفّظ بالفعل وإنجاز له ينتهي بتأثّر المتلقّي فيتحقّق الفعل التأثيري على هذه الشاكلة:

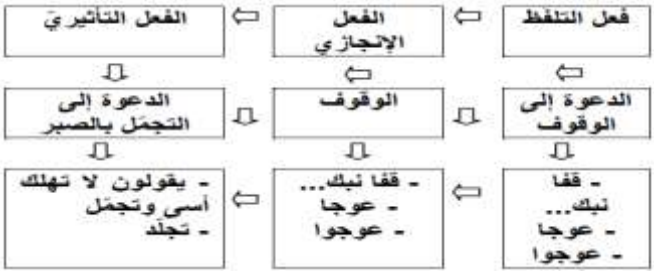

فاستجابت الدعوة إلى الوقوف على الأطلال من قريب، أو العوج عليها من بعيد إلى القوانين التي تتشكّل بمقتضاها ما تقوم عليه نظريّة أفعال الكلام من استحضار الجوانب الثلاثة للفعل الكلامي تلفّظا وإنجازا وتأثيرا. وارتبط فعل الدعوة إلى الوقوف بالدعوة إلى البكاء.

4-1-2- إبكاء الصحب:

الإبْكاء مصدر من أبكى وقد احتوى المطلع الطللي على البكاء حركة يقوم بها الشاعر ويتعدّى الشاعر إلى الصحب والرفاق. فلم تقف دعوة الرفيقين إلى الاستيقاف فحسب، بل تعدّتْهُ إلى البكاء فكان طلب القيام بفعل البكاء مظهرا طاغيا على المطالع الطللية. ولمّا كانت وقفة امرئ القيس الأشهر والأسبق كان فيها الارتباط الوثيق في إنجاز فعليْ الوقوف والبكاء متلازميْن **[قفا-نبك]** [من الطويل]:

"**قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسَقْطِ اللَوَى بَيْنَ الدَخُولِ فَحَوْمَلِ**"[44]

وفي موضع آخر **[عوجا...نبك]**[من البسيط]:

"**عُوجَا عَلَى الطَلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا * نَبْكِي الدِيَارَ، كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامِ**"[45]

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وسادت هذه الدعوة الشعر العربيّ. فارتبط الوقوف على الأطلال بالبكاء. فدعا ذو الرمّة الخليل إلى الوقوف والبكاء [من الطويل]:

خَلِيلَيَّ عُوجَا مِنْ صُدُورِ الرَوَاحِلِ ** بِجُمْهُورِ حَزْوَى فَابْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَمْعِ يَعْقُبُ رَاحَةً ** مِنَ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلَابِلِ

فالبكاء لم يكن بمعزل عن وجود رفيق خليل يدعوه الشاعر للوقوف. ومن ثمّة يتسنّى الإقرار بأنّ الاستيقاف والإبكاء فعلان رئيسان في المطالع الطللية يستدعيان ضرورة طرفين متكلّم/الشاعر ومتلقّ/الرفيق أو الخليل. ويستدعي الفعلان مرورا بالجوانب الثلاثة المكوّنة للفعل الكلامي تلفُّظا وإنْجَازا وتأثيرا.

أمّا التلفظ فيتنزل في نطق الشاعر بدعوة إلى القيام بفعليْ الوقوف أو التعريج للوقوف والبكاء.

وأمَّا الإنجازُ فإنّ التلفّظ قد تشكل في صيغة الأمر لطلب القيام بالفعل في صيغة واضحة المعالم أمرا مع ضمير المخاطب المثنى **[أنتما]** أوضمير المخاطب الجمع **[أنتم]** من خلال أفعال دالة على الوقوف والبكاء "**قفا نبك... عوجا.. ابْكِيَا... عوجوا... لَعَلَّنَا نبْكِي... لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَمْعِ...**". ويتنزّلُ مفعولا مطلقا نائبا عن فعل الأمر **[وقوفا]**. ويتوجه الشاعر بخطاب طلب القيام بفعلي الوقوف والبكاء إلى الخليل والرفيق فينشأ تواصل بينهما، تواصل قائم على طلب القيام بالفعل وردّة الفعل.

وأمّا الفعل التأثيري فيتجلى من خلال ردّة فعل المتلقي/الرفيق والخليل الذي يتفاعل مع الشاعر فيستجيب بدعوة جديدة إلى الصبر والتجمل واتقاء كثرة الحزن والأسى. فالفعل التأثيري قد حصل بِردّةِ فعل المتلقي الذي تفاعل مع الشاعر فاستجاب للوقوف وتأثر بالحال الوجدانية والعاطفية التي عليها من حزن وأسى وسجوم دمع... فدعاه إلى التجمل بالصبر... ولما كان هذا التواصل بين الشاعر والمتلقي استقامت الأركان الثلاثة للفعل الكلامي بصفة متزامنة. ويزداد الوصف وضوحا للأطلال في حوار بين الشاعر وخليله يروي فيه الشاعر أحداثا ماضية ويربطها بالآثار والرسوم وشتى مكونات الطلل. ويتجلّى طرفان جديدان في عملية التواصل، شاعرٌ يسعى إلى إقناع ممدوحه بمشقة الرحلة عاطفيا في الطلل والنسيب،

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وجغرافيا في مشقة السفر وضرب الطريق من أجل ممدوحه. ويُنْتِجُ نصًّا غرضه المدح وإبراز منزلة ممدوحه فيجيبه بإغداق العطايا والهدايا.

4-1-3- إيجاب حق الرجاء على الممدوح:

تحضر الأطلال في النصّ الشعريّ المدحيّ أساسا، وقلّما تكون في غيره من الأغراض. ووُرُودُها في النصّ المدحيّ دليل على أنها مقدّمة للغرض الرئيس "المدح". ودارسو القصيدة القديمة ربطوا ذلك بحضور الممدوح وجعلوا الشاعر مجبول على الالتزام بعناصر رئيسة قبل الدخول في الغرض. فوَقْفَتُهُ الطلليّةُ ووَصْفُ رَاحِلَتِهِ ومشقّةِ رحلتِهِ كلّها مقدّمات ترمي إلى التأثير في المتقبّل الممدوح ويوجب عليه العطيّة. فـ"**مُقصِّدَ القصيدِ إنما ابتدأ فيها بذكر الدِّيار والدِّمَنِ والآثار، فبكى وشكا، وخاطبَ الرَّبعَ، واستْوْقَفَ الرَّفيقَ(...) ثمّ وَصلَ ذلكَ بالنَّسيب(...) فإذا علمَ أنه قد استوثقَ من الإصغاء إليه(...)عَقبَ بإيجاب الحُقوق، فرَحَلَ في شِعْرِه(...) فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل(...) بدأ في المديح، فبَعَثه على المُكافاة، وهَزّه للسَّماح، وفَضَّلَه على الأشْباهِ، وصَغَّرَ في قَدرِه الجَزيلَ**"[46] فكلّ المقاطع مجتمعة تُؤدّي إلى التأثير في المتقبّل الممدوح الذي سيقابل الشاعر بالمكافأة والسماح وتقديم العطاء الجزيل.

4-2- الأفعال الإنجازية غير المباشرة:

يستعين الشاعر بأساليب إنشائية متنوعة قوامها النداء والاستفهام والأمر... فيستدعي بصفة مباشرة أو ضمنية متقبلين واقعا وافتراضا... ويتوهم تحقق تواصل مع موجودات غير عاقلة مثل الأطلال والديار أو موجودات عاقلة لكنها بعيدة في المكان والزمان مثل الحبيبة.

4-2-1- مناجاة الحبيبة:

يتذكّر الشاعر الحبيبة "**وحسنها ويستعيد إلى خياله ذكرياته معها، فيحنّ إليْها، ويتحسّر على أيّامه معها، وويصوّر حبّه وغرامه، وآلامه وأحزانه، ويأسه وحرمانه، فيذرف الدموع، ويسفح العبرات**"[47].

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

ويتجلّى حضور الحبيبة من خلال التكنية بأسماء النساء مثل "**عبلة**" و"**ميّة**" و"**أسماء**"... فتتنزّل بصفتها مخاطبا يناجيه الشاعر وتنقل المناجاة المخاطب الغائب إلى توهّمه حاضرا. فيتشكّل خطاب غير مباشر يؤسّس لبناء أعمال لغويّة تعكس بناء مخصوصا لأفعال الكلام. وكانت الأعمال اللغويّة تنزاح من الحبيبة إلى الطلل في تفاعل فريد. كما نراه في مطلع طلليّ لقصيدة عنترة في قوله [من الوافر][48]

لِمَنْ طَلَلُ بوادي الرّمل بالي ٭ مَحتْ آثارَهُ ريحُ الشّمالِ

وقَفتُ به ودَمعي من جُفُوني ٭ يَفيضُ عَلى مَغَانِيه الخَوالـــي

أُسائِلُ عن فَتاةِ بني قَرَادٍ ٭ وَعَنْ أتْرابِها ذَاتِ الجَـــمالِ

فكان الطلل مثيرا لوجود الحبيبة من خلال ذكراها ومن خلال ما تبعثه رسومها وديارها.

4-2-2- مناجاة الطلل:

جرت مناجاة الطلل في أعمال لغوية قوامها النداء والأمر والاستفهام والدعاء والوعد بالوفاء... واقتضت تجاوبا بين الشاعر وطلله في عملية تواصل فريدة يحضر فيها الشاعر متكلما مخاطبا يشكو أشواقه وحزنه وأساه ويتجلى الطلل متقبلا متفاعلا موهوما. فالشاعر "**كثيرا ما يتّجه إلى الطلل يبثّه شكواه وآلامه وأحزانه، وكأنّ هذا الطلل تحوّل في نفسه إلى معادل موضوعيّ للحبيبة الراحلة... ومن هنا كان الطلل محورا للتصوير النفسي والواقعي في آن واحد. فالطلل واقع عند الجاهليّين يستطيع الشاعر من خلاله أن يسقط عليه أحاسيسه الخاصّة، أو يسترجع عَبْرَهُ ذكرياتِ حبّهِ الماضية**"[49]

وكلما كان الشاعر باثّا أشجانه كلّما توهّم طللا متفاعلا متجاوبا. ويجري هذا التفاعل في تجانس تامّ بين ما يوحي به الطلل من آثار دارسة موحية بالحزن والأسى وبين ما يعيشه الشاعر من انفعال وجداني عاطفي. وهذا التواصل يعكس أعمالا لغوية مهمة قوامها التفاعل بين الطرفين. وتتجلّى المناجاة في النداء في مطلع دالية النابغة الاعتذاريّة [من البسيط][50]

يَا دَارَ مَيّةَ بالعَلْيَاءِ فَالسنَـــدِ ٭ أقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأبَدِ

وَقَفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائِلُها ٭ عَيّت جَواباً وَما بِالرَبعِ مِن أَحَدِ

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

فاعتمد النداء للبعيد وشحنه بالتعبير عن سؤالها "**وقفت أصيلانا أسائلها**" ويتوهّم تواصلا "**عيّت جوابا**"...

فلسانيّا حضرت مختلف الأركان التواصليّة باثا ومتقبّلا وفعلا وردّ فعل. وينادي الشاعر الطلل ويدعوه للجواب مثلما يدعو عنترة الدار في قوله [من البسيط]:

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي ٭٭ عَمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي[51]

فعضد النداءَ أمرٌ قوامُهُ طلبُ القيامِ بالفعلِ "**تكلّمِي، عَمِي، اسلمي...**" فالتواصل حاضر بين طرفي الشاعر والدار، فتجسّد حوار طريف مأتاه الفعل وتوهّم رد الفعل فاعتبرناه غير مباشر ونزّلناه في خانة مخصوصة قوامه الفعل وتوهّم رد الفعل في تواصل طريف.

وكثيرا ما يتجلّى تفاعل النداء مع الأمر أسلوبا قائما على طلب القيام بالفعل مثل قول زهير بن أبي سلمى [من الطويل]:

"**فَلَمَّا عَرَفْتُ الدارَ قلتُ لربعِهَا ٭٭ أَلَا انْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَبْعُ وَاسْلَمِ**"[52]

فكان النداء **[أيّها الربع]** متوسطا أمْريْن واضحيْن **[انعم]** و**[اسلم]**، فكان ينادي الدار ويخاطبها ويحيّيها ويدعو لها. في أفعال يتوسطها النداء فجرت مناجاة طريفة من شاعرٍ يشكو حزنَهُ وأسَاهُ وربْعٍ يشهدُ مَاضيهِ مع الحبيبة.

وتصوّر عنترة للطلل المجيب المتفاعل مع الشاعر في قوله [من الكامل][53]:

أعيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لم يَتَكلَّمِ ٭٭ حَتى تَكَلَّمَ كالأصمَ الأعْجَمِ

ولَقدْ حَبستُ بِها طويلاً نَاقَتِي ٭٭ أَشْكُو إلى سُفْعٍ رَوَاكدَ جُثَّمِ

فتشكّل طلل مجيب متفاعل في صعوبة نطق كلام "**أصمّ أعجم**" فعكس التواصل بين الطرفين وتنزّل التواصل في بثّ الشكوى والتفاعل مع هذه الشكوى في فعل وردّ فعل.

وينادي لبيد الدار في قوله [من البسيط]

يا دارَ سَلمى خَلاءً لا أُكَلِّفُها ٭٭ إلّا المَرانَةَ حَتّى تَعرِفَ الديْنا[54]

فنادى الدار وربطها بمعرفة الدَيْنِ وقَصَدَ به العهد والأمر الذي كان يُعْهَدُ. والمعرفة ما هي إلاّ تجاوب وتواصل. النداء دائما ما يعضده تواصل بين طرفيْن منادٍ ومنادًى. وتنْهضُ بالتواصل أعمالٌ قِوامُها الفعل وردّ الفعل.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وكثيرا ما يتوسّل الشاعر أساليب متنوّعة كالاستفهام فنكاد نجزم بعدم وجود مطلع طلليّ خال من الاستفهام[55] والاستفهام جوهر طلب الإجابة عن أمر ما، ويحصل التواصل بحصول المتكلم عما يبحث وإلام يسعى. وكثيرا ما يكون السائل جاهلا بما يستفسر عنه. وبما يكتسبه الاستفهام من طابعه الإنشائيّ كثيرا ما يتنزل في سياقات عاطفية وجدانية وطاقات انفعالية. ولما كان الطلل تعبيرة وجدانية كانت الأساليب مناسبة. والاستفهام يستقيم عملا لغويا خاصة إذا توفرت عناصر التواصل الشاعر باثا والطلل متقبلا موهوما، والتفاعل حاصل باستفسار الباث وتوهم إجابة المتلقي. فنرى الشاعر يستفهم ويطرح التسآل إجابة كما في قول المرقّش الأكبر [من الكامل]:

هَلْ بِالدِيَارِ أنْ تُجِيبَ صَمَمْ ** لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلّمْ

دِيَارُ أَسْمَاءَ التِي تبلَتْ ** قَلْبِي فَعَيْنِي مَاؤهَا يَسْجَمْ[56]

فربط بين الاستفهام وما يعكسه من انفعالات وحاله التي تبتّل فيها قلبه وجرى فيها دمعه. وكان أمر الإجابة والتواصل وَهْمًا يَحْيَاهُ الشاعر من خلال الافتراض لأمر مستحيل الوقوع "**أن تجيب صمم**" و"**لو كان ناطقا كلّم**". فالتواصل غير مباشر لأنّ ردّة فعله موهومة رغم تحقّقها لغة وتلفّظا. فنرى عنترة يستغرب النداء والكلام مع طلل فاقد للكلام فوجد ردّة فعل من أطراف جديدة كما في قوله [من الوافر][57]:

لِمَنْ طَلَلُ بوادي الرّمل بالي ** مَحتْ آثارَهُ ريحُ الشّمـــالِ

وقَفتُ به ودَمعي من جُفُوني ** يَفيضُ عَلى مَغَانِيه الخَوالـــي

أُسائِلُ عن فَتاةِ بني قَـــرَادٍ ** وَعَنْ أتْرابِها ذَاتِ الجَمالِ

وكَيفَ يُجيبني رَسَـــمُ مُحِيلُ ** بَعيدُ لا يرُدُّ عَلى سؤالي

إذا صَاح الغُرابُ بهِ شَجَانِي ** وأجْرى أدمُـــعِي مِثْل اللآلي

وأخبَرنِي بِأصْنَافِ الـــرزَايَا ** وَبالهِجْرَانِ مِنْ بَعَد الوصَـــالِ

فبعد الاستفهام والإقرار بالوقوف والإخبار بالسؤال يعيد استفهاما إنكاريّا مفاده التعجّب والاستغراب من طلل "**يجيب**" و"**يردّ عن السؤال**" فإذا بصياح الغراب بديل عن إجابة الطلل. فتحقّق التواصل واستقام العمل اللغويّ الإنجازيّ بين الفعل القولي وردّة فعله. وتشكّل البعد الإنجازي في عمليّتيْ التأثير والتأثّر. فكانت الأفعال الكلامية في المطلع الطللي أقوالا

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

تستحضر التلفظ والإنجاز والتأثير وتشكّلت في أعمال لغويّة قوامها الأمر والنداء والاستفهام. فكانت سبيلا للوقوف على تشكّل متواليات لغويّة لا تُدْرك بغير المنجز اللغوي لنظريّة أفعال الكلام. فكشفنا عن النصّ إنْجازا لغويّا فريدا.

الخاتمة:

يجري الطلل مطلعا للقصيدة العربية القديمة. ويعبر عن طاقات انفعالية مهمة. ويجري على أعمال لغوية قوامها الأمر والنداء والاستفهام. وجريانه على هذه الأعمال اللغوية أمرا ونداء واستفهاما يجعله يستدعي متقبلا يستجيب للفعل لغويا ويتفاعل معه تداوليا... وهذا التفاعل التداولي يستحضر فيه الشاعر/المتلفظ أطرافا تشاركه الحوار. وتتجلى هذه الأطراف مباشرة متفاعلة مع الشاعر مثل استدعاء الرفيق يشكوه حزنه وأساه فيوقفه ويستجديه، والممدوح يوجب عليه حق الرجاء، والطلل في شكل الديار والربع والرسوم يناجيه ويستحثه البوح بما تستحمله الذكريات، والحبيبة يناجيها ويستذكر العهود والأيام الخوالي. ومع شتّى أصناف المتلقي تتوزع أعمال لغوية تجري في حركة تمثل الفعل وحركة مضادة تمثل رد الفعل. وهذه الأعمال اللغوية شكلت مدار الطلل بصفتيْه حالة شعريّةً شعوريّةً وخِطَابًا مَقُولا يمثل مطلع قصيدة مدحية.

ومقاربة هذه الحركات وفق نظرية أفعال الكلام يوحي بقابلية النص الشعري القديم وطواعيته للمقاربات اللسانية الحديثة ما يكسب الخطاب الأدبي قيمته ويعلو به عن التصنيف الهامشي المبتذل في الدراسات اللغوية المتعاملة مع اللغة في وضعيّة استعمال التي تكسِبُ النص الأدبي قيمته...

ومن فضل التناول لآليّات البحث اللساني التداوليّ عامّة ونظريّة أفعال الكلام بخاصّة الكشف عن حركيّة الأفعال التي تستحكم بناء النصّ الشعريّ والمطلع الطلليّ أساسا. وهذه الحركيّة من شأنها أن تحرّر النصّ من القراءات التقليديّة التي جمّدته فلم تكشف عن قدراته اللغويّة الهائلة. والمطلع الطلليّ شأن النصّ الشعريّ مازال ينطويّ على مخبوء لغويّ هائل ما يضفي على خطابه قيمة تداوليّة. وما يجعل من النصّ الشعري القديم طيّعا لدراسته وفق آليات لسانية حديثة مثل التداولية وتقنيات الخطاب.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

المصادر والمراجع:

(مرتبة ترتيبا ألفبائيّا دون اعتبار "أبو" و"ابن" و"الـــ" التعريف)

– **القرآن الكريم**

المصادر:

– امرئ القيس، الديوان، تحقيق محمد الفضل ابراهيم، دار المعارف، 1984.

– الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1993

– ابن حلزة (الحارث) ، الديوان، تحقيق مروان عطيّة، دار الإمام النووي ودار الهجرة، الطبعة الأولى، دمشق، 1994.

– ذو الرمّة، الديوان، تحقيق أحمد حسن بسبج، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، بيروت، 1995.

– الضبي (المفضّل)، المفضليّات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، 1992

– طرفة، الديوان، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة، بيروت 2002.

– عنترة، الديوان، شرح وتحقيق حمدو طمّاس، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 2004.

– لبيد، الديوان، دار صادر، بيروت، 1996.

المراجع:

– الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق أحمد الصقر، دار المعارف ومكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة [د.ت].

– بسناسي (سعاد)، الأفعال الكلاميّة وأبعادها التداوليّة، فصل الخطاب، المجلّـــ2ـــد، العـــ3ـــدد، جوان2013، صص233–249.

– بكّار(يوسف حسين)، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، دار الأندلس، الطبعة الثانية، بيروت1983.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

– بيرم (عبد الله)، التداوليّة والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العبّاسي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2012.

– الجداري (عمارة)، الطلل عالما ممكنا في الشعر العربي القديم (من خلال نماذج)، مجلة أبحاث المجلـــ06ـــد، العـــ01ـــدد، جوان2021، الصفحة 640–651.

– الجمحي (ابن سلام)، طبقات الشعراء، تحقيق طه أحمد ابراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان1998

– حسن (عزّة)، الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، ناشرون، دمشق، الطبعة الأولى، 1968.

– خليف (يوسف)، مقدّمة الأطلال في القصيدة الجاهليّة، مجلّة المجلّة، العـــ100ـــدد، أفريل1965، ص101.

– خليف (مي يوسف)، القصيدة الجاهلية في المفضليّات دراسة موضوعيّة، مكتبة غريب، الطبعة الأولى، [د.ت]

– صحراوي (مسعود)، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، مجلة الآداب واللغات، العـــ5ـــدد، جوان2006،

– الصرّاف (علي محمود حجي)، في البراجماتيّة: الأفعال الإنجازيّة في العربيّة المعاصرة دراسة دلاليّة ومعجم سياقيّ، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010.

– فان دايك (تون)، النصّ والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا للشرق، 1998

– قادري (خضرة)، ملامح نظرية أفعال الكلام في التقسيم الثنائي للبلاغة العربية–دراسة تطبيقية–، جسور المعرفة، المجلـــ05ـــد، العـــ02ـــدد، جوان2019، صص418–432.

– ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر1977.

– العبد (محمد)، النصّ والخطاب والتواصل، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005.

– عرابي (غالية)، نظريّة أفعال الكلام في ضوء الأسلوبين الخبري والإنشائي، فصل الخطاب، المجلـــ08ـــد، العـــ3ـــدد،سبتمبر2019، صص7–34.

– مانيه (فولفانج)، مدخل إلى علم اللغة النصّيّ، تر. فالج بن شيب العجمي، جامعة الملك سعود [د.ت].

– ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطيّة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، تونس2005.

- John Langshaw Austin, How to do things with words, Oxford University Press; Édition, New edition (13 mars 1975

الإحالات والهوامش:

1– عبد الله بيرم، التداوليّة والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العبّاسي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2012، ص109.

2– علي محمود حجي الصرّاف، في البراجماتيّة: الأفعال الإنجازيّة في العربيّة المعاصرة دراسة دلاليّة ومعجم سياقيّ، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010،

3– سعاد بسناسي، الأفعال الكلاميّة وأبعادها التداوليّة، فصل الخطاب، المجلّــ2ــد، العــ3ــدد، ص239.

4– خضرة قادري، ملامح نظرية أفعال الكلام في التقسيم الثنائي للبلاغة العربية–دراسة تطبيقية–، جسور المعرفة، المجلــ05ــد، العــ02ــدد، جوان2019، ص426.

5– مسعود صحراوي، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، مجلة الآداب واللغات، العــ5ــدد، جوان2006، 51–52.

6– سعاد بسناسي، الأفعال الكلاميّة وأبعادها التداوليّة، ص245.

7– جون لانشو أوستين[John Langshaw Austin] فيلسوف لغة أنقليزي عاش بين سنتيْ1911 و1960.

8- John Langshaw Austin, How to do things with words, Oxford University Press; Édition, New edition (13 mars 1975)

9– جون روجرز سيرل [John Rogers *Searle*] فيلسوف أمريكي معاصر متخصّص فيي فلسفة اللغة وفلسفة الذهن. ولد سيرل في دينفر بولاية كولورادو سنة1932 درس الفلسفة في جامعة أكسفورد، وعُيّن أستاذا لفلسفة اللغة بجاعة بيركلي سنة1959، أسهم في إغناء نظريّة أفعال اللغة/أفعال الكلام التي أسسها جون أوستين[John Langshaw Austin] "كيف نجو الأشياء بالكلمات"[how to do things with words] ويعدّ كتاب أفعال اللغة[Les actes de langage] لسيرل أحد أهمّ المصادر في نظريّة الخطابيّ الإنجازيّ أو ما يُسمّى بالتداوليّات.

10– علي محمود حجي الصرّاف، في البراجماتيّة: الأفعال الإنجازيّة في العربيّة المعاصرة دراسة دلاليّة ومعجم سياقيّ، ص66.

11– نفسه، ص69.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

12– عبد الله بيرم، التداوليّة والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العبّاسي، ص110.

13– خضرة قادري، ملامح نظرية أفعال الكلام في التقسيم الثنائي للبلاغة العربية–دراسة تطبيقية–، ص423.

14– علي محمود حجي الصرّاف، في البراجماتيّة: الأفعال الإنجازيّة في العربيّة المعاصرة دراسة دلاليّة ومعجم سياقيّ، ص194.

15- جون سيرل فيلسوف أمريكي من أتباع أوستين.

16– نفسه، ص94.

17– نفسه، ص368.

18– الإخباريات: وهي تقديم الخبر بوصفه تمثيلًا لحالة موجودة في العالم، ومن أمثلتها: الأحكام التقريرية والأوصاف الطبية والتصنيفات والتفسيرات.

19– التوجيهيات: وهي الأفعال التي تحاول جعل المستمع يَتَصَرّفُ بطريقة تجعل من تصرفه متلائمًا مع المحتوى الخبري للتوجيه، ومن أمثلتها: الأوامر والنواهي والطلبات.

20– الالتزاميات: وهي الأفعال التي يتعهد فيها المتكلم بتنفيذ الفعل الممثل في المحتوى الخبري، ومن أمثلتها: المواعيد والنذور والرهون والعقود والضمانات والتهديد ولكنه ضدّ مصلحة المستمع ولا يعود عليه بالنفع.

21– التعبيريّات: وهي الأفعال التي تعبّر عن شرط الصدق للفعل الكلامي، ومن أمثلتها: الاعتذار والشكر والتهاني والترحيب والتعزية.

22– الإعلانيات: وهي الأفعال التي تعمل على إحداث تغيير في الواقع، بحيث يطابق الواقع مضمون القضية بمجرّد الإنجاز الناجح لمضمون الفعل الكلامي، ومن أمثلتها: (أعلن اندلاع الحرب، أنت مطرود، أنا مستقيل، بعتك كذا، زوجتك فلانة).

23– محمّد العبد، النصّ والخطاب والتواصل، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص278.

24– فولفانج مانيه، مدخل إلى علم اللغة النصّيّ، تر. فالج بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود [د.ت] ص65.: "يقوم الاهتمام بالبحث النصيّ المتأثّر بنظريّة الحدث على تساؤليْن هما كشف المبادئ التي تربط على أساسها الأحداث الجزئيّة لتكوّن الأحداث المركّبة في النصوص من جهة، وعلى تعريف السياق في أبنية الحدث في النصوص مع أبنيتها اللغويّة المناسبة من جهة أخرى. وإذا كان بالإمكان الوصول إلى أهداف الحدث بوساطة قول العبارات اللغويّة".

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

25- تون فان دايك، النصّ والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا للشرق، 1998 ص323.

26- عبد الله بيرم، التداوليّة والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العبّاسي، ص56.

27- ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطيّة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، تونس2005، الجزء الثالث، مادّة [ط،ل،ل] ص2407.

28- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر1977، الجزء الأوّل، ص80.

29- مي يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليّات دراسة موضوعيّة، مكتبة غريب، الطبعة الأولى، [د.ت] ص156...

30- عمارة الجداري، الطلل عالما ممكنا في الشعر العربي القديم (من خلال نماذج)، مجلة أبحاث المجلــ06ــد، العــ01ــدد، جوان2021، الصفحة 640-651.

31- عزة حسن، الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، ناشرون، دمشق، الطبعة الأولى، 1968، ص 25.

32- غالية عرابي، نظريّة أفعال الكلام في ضوء الأسلوبين الخبري والإنشائي، فصل الخطاب، المجلــ08ــد، العــ3ــدد،سبتمبر2019، ص17.

33- يوسف حسين بكّار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، دار الأندلس، الطبعة الثانية، بيروت1983، ص183.

34- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1993، ص15.

35- القرآن الكريم، سورة ق، الآية24.

36- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات، ص17.

37- عبد الله بيرم، التداوليّة والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العبّاسي، ص59.

38- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، تحقيق طه أحمد ابراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان1998، ص42

39- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات، ص135.

40- امرئ القيس، الديوان، تحقيق محمد الفضل ابراهيم، دار المعارف، 1984، ص126.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

41- ذُو الرُّمّة هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي الربابي التميمي، كنيته أبو الحارث وذو الرّمّة شاعر عربي من الرباب من تميم، من شعراء العصر الأموي، من فحول الطبقة الثانية في عصره. ولد سنة 77 هـ/696 م، وتوفي بأصفهان وقيل بالبادية سنة 117 هـ/735 م وهو في سن الأربعين... وكنّي بذي الرمة لقوله في الوتِد-*أشعث باقي رمة التقليد*-، والرُّمّة، بضم الراء، الحبل البالي.

42- ذو الرمّة، الديوان، تحقيق أحمد حسن بسبج، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، بيروت، 1995، ص183

43- الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق أحمد الصقر، دار المعارف ومكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة [د.ت]، الجزء الأوّل ص409.

44- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات، ص15.

45- امرئ القيس، الديوان، ص126.

46- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الجزء الأوّل، ص80.

47- يوسف خليف، مقدّمة الأطلال في القصيدة الجاهليّة، مجلّة المجلّة، العـــ100ـــدد، أفريل1965، ص101.

48- عنترة، الديوان، شرح وتحقيق حمدو طمّاس، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 2004، ص148.

49- يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليّات ص156..

50- النابغة الذبياني، الديوان، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلميّة، بيروت 1996، ص9

51- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليّات، ص296.

52- نفسه، ص243.

53- عنترة، الديوان، ص179.

54- لبيد، الديوان، دار صادر، بيروت، 1996، ص212.

55- ومن أمثلة ذلك:

*- طرفة، الديوان، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمبّة، الطبعة الثالثة، بيروت2002، ص63.

أَتَعرِفُ رَسمَ الدارِ قَفراً مَنازِلُه * * كَجَفنِ اليَمانِ زَخرَفَ الوَشيَ ماثِلُه

*- الحارث بن حلزة، الديوان، تحقيق مروان عطيّة، دار الإمام النووي ودار الهجرة، الطبعة الأولى، دمشق، 1994، ص119.

المجلد: (16) | العدد:(01) | السنة: 2024 | صفحات المقال: 109 – 133 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

لِمَنِ الديارُ عَفونَ بِالحَبسِ ** آياتُها كَمَهارِقِ الفُرسِ

*– المفضل الضبي، المفضليّات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، 1992،ص105، مفضليّة عبد الله بن سلمة الغامدي

لمن الديار بتولع فيـــوس ** فبياض ريطة غير ذات أنيـــــس
أمست بمستنّ الرياح مغيلة ** كالوشم رجّع في اليد المنكـــوس
وكأنّما جرّ الروامس ذيـــلها ** في صحنها المعفوّ ذيل عروس

56– المفضل الضبي، المفضليّات، ص237، مفضليّة المرقش الأكبر.

هَلْ بِالدِيَارِ أنْ تُجِيبَ صَمَمْ ** لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلّـــمْ
الدَارُ قَفْرٌ وَالرُسُومُ كَـــمَا ** رَقّشَ فِي ظَهْرِ الأدِيمِ قَلَـــمْ
دِيَارُ أسْمَاءَ التِي تبلـــــتْ ** قلْبِي فَعَيْنِي مَاؤهَا يَسْجُمْ
أضْحَتْ خَلَاءً نَبْتُهَا ثئِـــــدُ ** نَوّرَ فِيهَا زَهْوُهُ فأعتـــمّ

57– عنترة، الديوان، ص180.